

كيف تحيا سعيداً

سورة الحج النبوية آية الله العظمى
السيد محمد زكي المارديني

الشيخ محمد زكي المارديني
مؤلف

آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله)

كيف تحيا سعيداً؟

الكتاب/ الخامس للسنة التاسعة

منابع الثقافة الإسلامية

جمادى الثانية/ ١٣٨٨ للهجرة

ما هي السعادة؟

السؤال الذي لزع بكل إنسان ودوخ كل إنسان {ما هي السعادة؟} السؤال الذي فففس البشر له عن اجابة صحيحة عبر تاريخ طويل:

أهي أطابة طعام، وتكليف البيئة وفق الحاجات أهي هذا فقط ام هي ايضا احلام فففس حتى فففس طموح الإنسان الكبير.

لقد قال بكل ففقس ولكني احسبه حقاً الجواب الفالي: فف فافقت الحياة فف فففات الإنسان ومفففهفاته فقد سعدت الحياة وسعد فيها الإنسان:

فهي فبف في القلب فيفرع عنه وفاق الحياة.

الذي لا فطلب من الدنيا سوى كسرة رغيف. وشربة ماء. وسعة ففرف من من حافة الرصيف فهو سعيد إذا اعطفه الحياة ما اراد.

اما إذا وسع هذا الفرد فففة بامفلاك ببف فففر وراء فلك الأمور فلم فهب له الدنيا سواها فهو من الاشقياء:

وقد يكون سعيداً كالإمام أمير المؤمنين الذي ففكفي من الحياة بقرصين ومن اللباس بظمرفن إذا عمل الناس بالحق. وعافوا الباطل، اما إذا عند معه الزمان فعد فيه المحسن مسيئاً، والمسيئ محسناً فخير له ان فرحل من الدنيا لانها لم فعطفه ما اراد.

وقد لا يكون سعيداً كـ{روكفلر} ملك الدولار في العالم لانه اراد اكثر مما
اعطى فشقى وشقت به الحياة:
وبكلمة واحدة نقول:

{السعادة هي الملائمة بين قلب الإنسان وواقع الحياة التي يعيشها}:
وكيف نوفق بين القلب والحياة؟
إلى ذلك طريقان متبعان في كل الامم.
طريق تكييف الحياة ليجعلها مثلما يجري في القلب من اشتهااء حياة
افضل واكمل.

وهذا الذي يسعى له الإنسان في كل زمان وكل مكان. وهذا الذي صاغ
الحضارات وطورها إلى شكلها الحالي الموجود.
وعلى الإنسان - أي إنسان - ان يسعى جهده مع الاسرة البشرية لتكييف
بيئة الحياة وفق متطلبات قلبه الكبير الواسع.
وطريق اخر يكيف نفسه وقلبه مع الحياة. فلا يريد سوى ما يمكن ان
يبلغه بغير جهد وبغير شقاء.

ويتبع هذا الطريق موكب حافل يسير معه الشعراء والادباء وذوو الفنون
الجميلة. وفي طليعة هذا الموكب يسير الأنبياء العظام. والموجهون
الاخلاقيون:

وهذا الكتاب حينما نقدم - مساهمة منا في دفع هذا الموكب إلى الإمام.
شريطة ان نندفع معه لتحقيق الهدف الإنساني الاعلى الذي يحلم به كل
شيء في الحياة السعيدة.

حقل السعادة

ابن يقع ذلك الحقل الذي تنبت فيه السعادة فيملاً الانوف عطراً واريجا
ويشحن الفكر سكينه وهدهوءاً، ويلبس الحياة قرنفاً وفلاً؟

لو فتشت عنه كل مكان في الشرق والغرب في الأرض والسماء لما
وجدته - اتدري لماذا؟

لانه يقع في قلبك. في احناء ضميرك في تيار تفكيرك في كل قلب نبع
للسعادة يجري منه الماء زلالاً صافياً:

وفي كل ضمير مروج خضراء.

وفي كل فكر زهرة بيضاء. فمن ذلك النبع. وعلى تلك المروج تنبت
السعادة في الفكر زهرة بيضاء ناضرة.

ليست السعادة هي الفضيلة متى كانت كانت، واني رحلت رحلت،
اوليست للفضيلة حقولاً في القلوب: ومروجاً في الصدور ووروداً في
الافكار.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

{ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها}

لقد اهتم كل إنسان ما يترك وما يعمل من شرّ وخير وقال امير المؤمنين
(ع):

{فكرك يهديك إلى الرشاد}

ويعترف بهذه الحقيقة الاديب الشهير جان جاك روسو قائلاً: (انا نجد
بين الأمم جميعاً. وبين تعاليمها الخلقية المختلفة المتناقضة نجد بين كل
هذا تلك الاصول الثابتة {العدالة والصلاح} ونفس التعاليم الخلقية ونفس
مفاهيم الخير والشر).

وعلى هذا يوجد في اعماق النفس البشرية اصول ثابتة العدالة والتقوى -
التي نجعلها لانفسنا - رغم اختلاف القوانين والظروف - مقياساً نقضي
به على أعمال الناس ونحكم لها بخير أو شر، ان هذا الاصل هو الذي
اجده {انا} في نفسي.

وانت فقل لي: هل تجد في العالم امة يعتبر فيها الالتزام بالعقيدة والايمان
وكتمان السر والرحمة بالخلق وابتغاء الخير للناس والبسالة والشهامة -
اجراماً مبغوضاً.

أو يعد فيها الرجل الصالح مكروها منفورا والطالح محبوباً مكرماً.

فيا أيها الوجدان {الادبي} الخير! ايها العزيزة البصيرة! ايها الصرخة
السماوية الخالدة! ايها الهادية الرشيدة - لهذه الخليفة الضالة!

انت الحرة العاقلة

يا من تميز الحقّ عن الباطل والرشد عن الغي!

انت الذي تقرب الناس إلى الله

انت الذي تطهر الضمير عن اوساخ الجهل والظلم، وتنظم الأخلاق وفق
التعاليم الرشيدة الحكيمة!

لو لم تكن لي لما كنت اشعر - في ضميري - ما يسمو بي عن البهائم
واذن كنت اقتحم بما اتيت من عقل ضل وحس انحرف في - متاهات
الجهل والظلم في ضلال مستمر من خطأ إلى خطأ^١.

فالمكارم اصول ثابتة راسخة في النفس الانسانية تنفرع منها الفضائل
والمكرّمات ان وانتهى المواسم الخيرة - ولا تختص - هذه الاصول -
بشعب أو عنصر أو امة دون اخرى.

وليست التربية أو التوجيه الا تنمية هذه الاصول واستخراج خبثها المستور -
أو - ان كانت سيئة دسها تحت رغام المصالح واضلالها وفي زحام الماديات
الرخيصة!

^١ - أميل ص ٢٠٤

ولكنها سوف تبقى رغم هذا وذاك مبعث اشعاع وضآء يحكم على النفس والناس ويبصر الإنسان طريقه المستقيم إلى الله والقيم. ومن هنا نجد امم العالم كلها تحلم بطريق أو باخر ان توفق بتحقيق مبادئ هذه الاصول على نفسها. تطبيقا يلائم ظروفها الخاصة:

يقول الدكتور موريس ريس - الاستاذ بجامعة ستراسبورك:

تفاجئ الشباب بين ١٥ - ١٧ صيحة لسماوية مقدسة تتبعث من اعماق انفسهم داعية لهم إلى نفس صروح الشر والظلم ومحوها عن وجه هذا الكوكب وان يلتمسوا العيش في عالم مثالي فاضل ويطبقوا العدالة الانسانية على البشر في كل مكان.^٢

تدفعه في تلك اللحظة التي تنفجر طاقات الإنسان في كيان الطفل والى ان يصبح انسانا مكتملا - تتبعث فيه ايضا شعلة حكيمة شجاعة تدعوه إلى الخير والصلاح.

يقول الدكتور الآنف الذكر

فكان علماء النفس يتفقون على هذه النقطة وهي ان هناك علاقة وثيقة متينة بين مشاعر البشر العاطفية التي تندلع أول البلوغ وبين وجدانه الديني في الوقت ذاته

^٢ - البلوغ ١٢٢ - ١١٨

ففي مثل هذا الزمان تقوم من ضمير الإنسان نهضة دينية حتى عند اولئك الذين لم تكن لهم اية علاقة {ترابطهم بالدين والمذهب}^٢ وإذا ثبت هذا الواقع فعلياً ان نبتغي منهاجاً تربوياً وتوجيهياً صالحاً يكفل للإنسان تنمية هذا الوجدان الادبي على افضل وجه.

والاسلام يملك طاقات هائلة يستطيع بها تحقيق هذه المهمة فاذا به يضرب المثل الاعلى في تنمية مشاعر الخير في الإنسان وتوجيهها والموازرة بينها وبين الحقوق التي يجب اداؤها في الحياة.

ومن هنا كان على الموجه الخلقى - ان يستخدم هذه الطاقة في سبيل انماء الوجدان الادبي في المجتمع.

وسواء كان موجه الفرد نفسه أو وليه أو معلمه أو كاتب صحفي أو مذيعة فان هناك واجباً مشتركاً على الجميع هو انماء مشاعر الخير واستخدامها في التوجيه الصالح.

وبهذا يحيى الفرد سعيداً. وتعيش الامة في سعادة. وتزهر الحياة لكل من دخلها زهرة الهناء.

^٢ - البلوغ ١٢٢ - ١١٨

كيف تسعد بلسانك؟

(١)

كان المتسلل إلى مصنع الحياكة مندهشاً حينما سمع الحائك الماهر يردد ويخاطب لسانه قائلاً: كل حذري منك أيها المارد اني اسهر الليالي واقضي الايام في سبيل لقمة عيش، ولكن هل لي ان ارجو ذلك وانت في فمي؟ فشغل المتسلل عما جاء من اجله من السرقة واخذ يستمع إلى الحائك في عجب فعزم غداً على ان يتابع حياة هذا الرجل ليرى نهايتها فاخذ يراقبه كل ليلة حتى اتم الحائك السجاد القيم، وفي الغد اخذ السجاد الثمين إلى الملك هدية قيمة فرحب به واعجب بهديته وقدر مساعيه وحضر المتسلل المجلس ليشهد مصير الحائك فقال كل قولاً ثم قال الملك: الافضل ان تسئل من الحائك فهو اعلم بالموضوع فلما سأله اجاب: في رأيي ان احسن ما يصلح له السجاد هو ان يطرح على جنازة الملك فاذا بالملك اشتد غضبه ونهر الحائك، وامر بقطع لسانه وقطع عنقه: هناك قام المتسلل إلى الملك وقص عليه قصة الليالي ومناجاته العجيبة مع

نفسه كل ليلة سهر فيها على السجاد واعتذر عن المسكين بأن لسانه لا يعبر عن فؤاده تماما.

ومن هنا نعرف حكمة الإمام الباقر (ع) {إن الندامة على طول الصمت مرة واحدة خير من الندامة على كثرة الكلام مرات}.

الكلمة الواحدة تكفي لشقاء عمر كامل، وللقضاء على عمر كامل فلماذا لا لاحظ كلماتي، واتبع القصد فيها، ولا اكون وراء لساني يجرني إلى ما لا تحمد عواقبه، ان اللسان مارد يجب ان يسجن قبل ان يلقي صاحبه في السجن، ويجب ان يقيد قبل ان يكبل صاحبه بالف قيد، قال الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل

ان ابا ذر كان من اصدق اصحاب النبي، ولكنه حينما يستصح الرسول بشيء يقول له النبي (ص) الا اعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان؟ قال: بلى يا رسول الله قال هو الصمت، وحسن الخلق، وترك ما لا يعنيتك:

اتدري ما كان خلق صحابة الرسول الذين اعجب بهم العالم مدى التاريخ: كانوا كما يقول احدهم ان الرجل ليكلمن بالكلام وجوابه اشهى الي من الماء البارد على الظمأ، فاتركه خيفة ان يكون فضولاً {كان قد ادبهم النبي (ص) بذلك حينما قال لهم

{طوبى لمن امسك الفضل من لسانه وانفق الفضل من ماله}.

وحيثما قال لهم من تكفل لي بما بين لحييه ورجليه اتكفل له بالجنة،
وحيثما سأله ما النجات، اجابهم املك عليك لسانك}.

وحيثما اكثر من تلاوة آيات النار يوم القيامة واهوالها المرعبة: فارادوا ان
يعرفوا ما هو السبب الرئيسي في دخول الناس إلى النار قال لهم، {وهل
يكب الناس على مناخرهم في النار الا حصائد السنتهم}.

(٢)

اتدري ما أقرب الخطوط بين نقطتين؟. انه الخط المستقيم وكذلك كلما في
الحياة اقرب الطرق التي تؤدي إلى اهدافك هو الصراط المستقيم، ولا
اظنك ترضى عن الطريق القريب بالبعيد فلماذا لا تصمم على ان تسلكه
دائماً، ان الاستقامة اية الطبع السليم المعتدل، وهي تظهر في اللسان
صدقاً، وفي العيش صراحة، وفي الحياة عقيدة تحيي ولا تموت، والالتواء
يموت ولا يحيي، والمستقيم هو الإنسان الطبيعي المعتدل الذي لم تؤثر
فيه عاقبة من هنا تعوجه ولا مصلحة من هناك تلويه.

وقد يحسب طائفة من الناس ان الاستقامة تجر اليهم المشاكل

ويحتجون لذلك بان صاحب المصنع الذي يصارح زبائنه وصاحب المحل الذي يصدق لمشتريه، وبصورة خاصة المحامي الذي يحاول الا يكذب في كل ما يسئل، والموظف الذي يحب ان لا يصارح مراجعيه بكل امر، ان هؤلاء هم اناس فاشلون في الحياة اليومية.

ولربما كان هذا بالفعل في بعض الظروف أو في قسم من المهن، ولكننا نسئل هل من المستحيل ان يجد الفرد مهنة لا تتطلب منه الالتواء، وحتى لو كان من الصعب عليه ذلك فهل من الاصلاح للاسرة البشرية ان تعيش في حالة الالتواء إلى الابد. أو هل للإنسان ان يعتقد ان افضل احتمالات السعادة هذه الحياة الملتوية؟ فلنجرب حياة مستقيمة ولو بقليل من مرارة المبتدأ - ان كانت هناك مرارة - فعسانا نفوز بمنتهى حلو، وليبتدأ كل فرد يخلق حياة مستقيمة لكي ننتهي إلى مجتمع مستقيم.

يقول الكاتب والفيلسوف الانجليزي (برتراند رسل): اننا نحيا في دنيا خداع ورياء، والصدق حقبة في سبيل صاحبه في مجتمع يوده النفاق، ولكن هذه الحقبة يرجحها ويفوقها فوائد عدم التهيب الذي بدونه لا يتأتى للإنسان ان يكون صادقاً، اننا نحب لآبنائنا ان يكونوا مستقيمين صرحاء يحترمون انفسهم، وانني شخصياً اؤثر ان يفشل اولادي لاتصافهم على ان ينجحوا باساليب

العبيد.^٤

في صالحك ان تدفع الف دينار لتشتري سيارة صغيرة تفلك عند انتقالك من والى البيت والمحل، ولكن هل في صالحك ان تدفع مائة الف دينار للغاية نفسها؟ طبعاً لا لماذا؟ لان هذا المبلغ أحب إليك من سيارة صغيرة.

ان الاستقامة اعلى بكثير من النجاح مع الالتواء اذ ليس لنا ان ندفعها ثمناً للنجاح الحقيق ومما لا شك فيه ان القلق والشبح المفزع الذي يهدد سعادة الانسانية.. ولو فتش عن اسبابه لرأينا اكثرها ترجع إلى الالتواء، ان فقد الاستقامة يعني بالضبط فقد كل خير في المجتمع الانساني، واليك هذا الشاهد الواضح من واقعنا المعاصر: يعتقد المراقبون السياسيون ان نكسة العرب في حزيران جاءت من فقد ثقة الشعب بالدولة، والدولة بالشعب في اكثر الدول العربية، ولكني اعتقد انها جاءت ايضا من فقد الاسرة الحاكمة في كل قطر ثقة بعضها من بعض وذلك للنفاق والالتواء اذ كانت نتيجة حتمية لها.

ترى بعد هذا ان المال يكون شيئاً مذكوراً لدى المقايسة

بقيمة الاستقامة.

^٤ - في التربية ص ١١٧

ان النكسة كلفت الأمة العربية بل الأمة الإسلامية الشيء الكثير، ومع ان نتائجها لم تقدر بعد بالضبط فانها كانت باهضة جداً كما يعلم الجميع، فهل يمكننا ان نتخذ منها درساً عملياً، ونصمم على الصراحة والصدق والاخلاص، واخيرا على الاستقامة حتى ترجع ثقة الدولة بالشعب والشعب بالدولة.

واليك تقويماً اخر للاستقامة:

من المعروف ان الرئيس خروشوف لما اجتمع بالرئيس ايزنهاور قال له: ان هناك جواسيساً يعملون للدولتين معاً ويتقاضون الاجور من كلا الجانبين، وهذا يعني انهم في نفس الوقت الذي يتجسسون لامريكا على الاتحاد السوفيتي كذلك ايضا يتجسسون للاتحاد السوفيتي على امريكا، فهل يمكننا ان نتفوق حتى نتخلص من هؤلاء الذين دوخوا اكبر دولتين في العالم؟

ان التجسس يقض مضجع العالم كله حتى يكون اتفاق الروس والامريكان اخر حل للمشكلة، التي عجزت عن حلها كل ما بوسع امريكا، والاتحاد السوفيتي من العقول الالكترونية ووسائلها المدهشة.

وفي كل قطر لا يحذر الناس من شيء حذرهم من الجواسيس الذين يعملون على حساب الدول الاجنبية، ونحن نعلم ان التجسس

يعتمد أول ما يعتمد على النفاق والالتواء.. افليس من الافضل من ان ندفع عن الناس هذا الخوف باشاعة الاستقامة في الحياة العملية، وذلك بان يصبح كل فرد منا مستقيماً صريحاً.

ان وزارة الاستخبارات في الولايات المتحدة تحتل مركز الصدارة، من اهتمام الدولة بعد وزارة الدفاع، واصبحت الاستخبارات في بعض الدول هي الموجهة لسياسة الدولة، حتى لم تبق أي سلطة بيد الرئيس أو الملك أو مجلس النواب أو الاعيان أو الشيوخ، وهذا يعني ان الالتواء، يدفع بالعالم إلى خلق عالم ضخم مهيب وراء هذه المظاهر ليصبح، حتى الرئيس والحزب والبرلمان، والسلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية مجرد اوهام بلا حقيقة، والحقيقة سياسة الاستخبارات التي لا يعرفها احد، وهذا تحد صريح لشرافة المثل الانسانية، فهل تقبله واذا قبلناه فهل هو في صالحنا؟

ان لم يكن ذلك في صالحنا فالافضل ان نقاوم الالتواءات ونعيش مستقيمين!

(٣)

وانا وافقك على ان الصراحة ليست بيننا في كل موقع فمثلا

لو كان لديك مستخدم متعجرف، و اردت ان تطرده ليس من الصالح ان تصارحه بعيوبه، وتنتقده انتقاداً لاذعاً فان ذلك يجعله ان يفكر في الانتقام ولكن بوسعك ان تضع الصراحة في كبسول حلو يتجرعه كل احد بدون مرارة، لقد كان من انجح رجال الأعمال الامريكيين ملك الصحافة (اندولف هيرست)[°] وكان متخصصا في صناعة الكبسولات التي تحتوي على مادة مرة هي الصراحة، وحينما اراد ان يستغني عن احد مستخدميهِ وجه إليه خطابا قال فيه: {انني لا اتصور يا بني كيف نستطيع ان نستغني عن خدماتك؟ ولكن سنقوم بمحاولة ذلك ابتداء من الاسبوع المقبل}، ولكن كان بإمكان (اندولف هيرست) ان يقول له: لا اريدك بعد اليوم ولكنه لم يكن يصبح ان على الإنسان ان يلاحظ اسلوب كلامه عندما يريد ان يتحدث إلى احد بصراحة فاذا استطاع ان يجد اسلوبا رائعا لا يחדش عاطفة الاخرين فهو إنسان مثالي كامل.

ان المعنى الواحد قد يصاغ في اسلوب جميل، فيقبله الناس بدون تردد، ولكنه إذا صيغ في اسلوب اخر رفضه كل من سمع.

يحدثنا التاريخ عن احد الجبابرة انه رأى في المنام اسنانه تتساقط، فطلب المعبرين فدخلوا عليه وعبروا له منامه بيد انه لم يأتته معبر الا وقتله لان السن عندهم علامة القوة وقوة الإنسان

° - مجلة العربي: ١١٢ ص ٧٢

باقربائه فسقوطه في الرؤيا يعني موت القريب وحيث ان هذه الرؤيا كانت تفسر عند المعبرين بهذا التفسير بالذات فان كل معبر اتاه لقي مصرعه ظلماً.. واخيراً جاء معبر بارع وقال له الملك أرأيت كيف قتلت اصدقائك فعليك ان تعبر رؤياي تعبيراً جميلاً ثم قص عليه رؤياه فقال المعبر: تفسيره انك تعيش اطول من كل اقربائك؟ فتهلل وجه الملك واكرمه ايما اكرام.

اعرفت ما هو وجه الفرق بين تفسير المعبرين الذين قتلوا وبين الذي أُكرم وأجيز؟ المعنى واحد ولكن الاسلوب اختلف والكبسول تغير.

ان الأناقة مطلوبة في كل شيء، وفي الكلام أكد طلباً يقول الله سبحانه {وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن ان الشيطان ينزغ بينهم، ان الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً}.^٦

ويقول: {واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل، لا تعبدون الا الله، وبالوالدين احساناً، وذي القربى واليتامى والمساكين، وقولوا للناس حسناً، واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}.^٧

ويقول علي امير المؤمنين (ع) في الحكمة المأثورة عنه: {لا

^٦ - الإسراء (٥٣).

^٧ - البقرة (٨٣).

تغضبوا ولا تغضبوا، وافشوا السلام، واطببوا الكلام، وصلوا بالليل والناس
نيام تدخلوا الجنة بسلام^٨.

(٤)

والآن اقدم لك وصفة تستطيع ان تستعمل بها الاسلوب الانيق الذي
يساعدك على مصارحة الاخرين بافكارك دون ان زعجهم:

١- كان الإمام زين العابدين (عليه السلام) في جملة الاسرى الذين
اوفدهم عامل الطاغية يزيد (لعنه الله) بعد الفاجعة العظيمة (كربلاء)
وكانت الدعاية الاموية سبقتهم إليه بان هؤلاء قوم خوارج بغوا في البلاد
فاخدمتهم السلطة وجاء باهلهم اسرى، وفي الشام تقدم شيخ حتى وقف
على الامام، وقال: الحمد لله الذي قتلتم وافضح احدوثكم في تلك الحالة
كانت هذه الكلمة لاذعة جداً، ونره لازم في هذا الموقف باشد ما يكون
لدى الناس العاديين فهل هو كذلك لدى صاحب الرسالة الهادف؟

٢- أو كنت في هذه الحالة لقلت ما قلت ولا فرعت عليه جميع احقادك
وضغائنك.. ولكن الإمام ما قال له؟ قال له يا شيخ هل قرأت

^٨ - وسائل الشيعة ابواب العشرة ج ٢.

القرآن: فقال نعم قال: هل قرأت قوله تعالى: وما اسئلكم الا المودة في القربى فقال نعم، قال: وهل قرأت واعلموا انما غنمتم من شيء فان الله خمسه وللرسول ولذي القربى فقال: نعم واما انتم وهذه الايات {انها نزلت في اقرباء الرسول فقال: يا شيخ نحن القربى، هنالك انبهر الشيخ واسقط في يده من هذه المجاملة لمثل هذا الشخص وهذه الاخلاق العجيبة فانقلب الشامي المعادي موالياً بهذه الكلمات القصيرة ومشى يخترق الصفوف ويهتف بسقوط يزيد.. حتى قتلن وقد كان لهذا النقد النزيه الذي وجهه الإمام (ع) الى الشامي كبيراً بحيث جعله يضحى في سبيل من صب عليه السب قبل ساعة هل عرفت كيف نقده الامام؟

١- انه لم يسم عواطفه بسوء.

٢- انه لم ينقده صراحة بل تلميحاً.

هذه هي الموعظة الحسنة التي يأمرنا باتباعها القرآن الكريم بقوله (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي احسن).

لا تعتقد ان فرداً ما سوف يصدقك على انه مجرم دونك حتى ان الذين ليساقون الى الكرسي الكهربائي في سجن (سنغ سنغ) يعتقدون انهم ابرياء وان الأعمال الارهابية التي صنعوها

كانت بدافع إنساني كما يتحدث بذلك مدير السجن.^٩

ذلك ان في كل إنسان غريزة الدفاع عن الذات، فاذا استثيرت هذه الغريزة فحتى العقل والعلم يعجزان عن رد صاحبه عن الغي، لأنه يعتقد بانه على الحق، ولا يجد الانتقاد الا تصلباً.

ان هناك طريقاً واحداً إلى هداية هذا الفرد هو الطريق الذي سلكه ابراهيم النبي (ع) مع قومه، كان ابراهيم الوحيد الذي يعتقد بالله، بين ممن يعبدون الاجرام السماوية والاصنام وكان يعتقد خطأهم مائة بالمائة.. ولكنه تحامى عن النقد بل سايرهم اولاً ثم انقلب عليهم بعد ما اظهر لهم انه اكتشف في عبادة غير الله نقاط الضعف.

٣- وهذه طريقة اخرى للنقد المفيد تعتمد على المسايرة حيناً، حتى يعرف المنقد ان النقد لا يمس كرامته وحده بل وكرامته الناقد ايضاً، فيخفف عنه وطأة النقد ويخضع لمضونه سريعاً.

وطريق اخر كان النبي محمد (ص) يدأب عليها وهو: حينما كان يرى من احد اصحابه ما يوجب النقد يصعد المنبر فيوجه خطابه إلى الجماهير، ويرغبهم في ترك السيئة الفلانية وانما فعلها فرداً واحداً منهم، فاذا به يترك العمل دون ان يتكلف النبي

^٩ - كيف تكسب الاصدقاء

عاقبة النقد السلبي الوخيمة.

وهنا تجيء الطريقة المحمدية.. لنتخذ منها قاعدة اخرى تتلخص فيما يلي:

٤ - وجه الخطاب إلى الجماهير، وانت تتقد فرداً واحداً، لتحفظ كرامته وحرمته وفي الحين توجه النقد للنزیه.

٥ - اجعل للمنتقد حلاً ايجابياً يوحي اليه نقطة ضعفه.. كل فرد يحب نفسه اولاً، والآخرين في الدرجة الثانية ومن هنا فان المتحدث الناجح هو الذي يربط قضيته بحب الذات في مخاطبة ويظهر له انه انما يهتم به ويتكلم لصالحه ولا يدعوه إلى ذلك مصلحته ترجع إلى نفسه.

يقول (ديل كار نيحي) اعتدت استئجار ردهات الفنادق المشرفة على الحديقة في فنادق نيويورك لالقاء بعض المحاضرات فيها لكنني وجدت احد الفنادق يوماً قد رفع الاجرة إلى ثلاثة امثالها، وكانت بطاقات الدعوة قد وزعت من قبل ولم اكن أشأ ان ادفع اجراً باهضاً، فتقدمت من مدير الفندق قائلاً: لقد بلغني انكم تودون رفع اجور الردهة، وهذا من حقكم فانك تريد جني اقصى ما تستطيعه من الارباح للفندق، والا اقالوك من وظيفتك وانا معك، ولكن دعنا نرى الفوائد والخسارة التي يمكن

ان تعود من رفع الاجرة، اما الخسارة فهي امكانية ابقاء الردهة شاغرة غير مستأجرة، واما الفائدة فهي اجتذاب عدد كبير من المتقنين لزيارة الفندق، واطن ان الادارة لن تقدر في جلب هذا القدر الكبير من الزوار لو انفقت (٥٠٠٠) دولار للدعاية في الصحف، هذا كما ان الطبقة التي تستحضر المحاضرات هي التي تؤم الفنادق في العادة، اصف إلى هذا المبلغ الذي سيتقاضاه الفندق من استتجاري ردهته.

ها انا بينت الفوائد والخسائر المحتملة، ولست انوي قبول اخطاركم برفع الاجرة، وها انا اترك لك التفكير في الامر راجيا اعلامي ما يقر عليه الرأي.

اما ما حدث فهو ان المدير خفض الاجرة بنسبة ٥٠% ولو قابلته صارخاً متشكياً من ان هذا استغلال لا يليق بفندق محترم، او هددته بنقل مكان المحاضرة (وكان هذا انذاك عسيراً) لقابلي هو الاخر بالتشديد والتصلب حفاظاً على كرامته واعتداداً بنفسه في انه يتخذ القرار الاصوب لصالح ادارته.^{١٠}

من الطبيعي انك ادركت سر نجاح (ديل كار نيجي) في هذا العمل: انه اتبع القاعدة السالفة الذكر.

^{١٠} - كيف تكسب الاصدقاء ص ٢٧.

٦ - حاول ان توجه النقد من وجه نظر المنتقد كان من انجح الكتب التي صدرت اخيراً في تحقيق اهدافها كتاباً {كيف تكسب الاصدقاء} و{دع القلق وابدأ الحياة} للكاتب الامريكي {ديل كار نيغي} ولم يقرأها احد الا واقتنع بهما تمام الاقتناع اتدري ما هو الاسلوب الذي يتبعه دائماً هذا المؤلف العالمي في كتابيه هذين؟ حتى اصبح انجح كتاب في الاخلاق.

انه استطاع ان يبصر الامور بمنظار القراء، ثم يشير إلى الاخطاء فاذا بها واضحة لديهم جميعاً.. انه يستخدم دائماً القاعدة السادسة افلا استخدمتها انت ايضاً.!

يندر ان نرى في التاريخ الانساني، قائد حرب يقتنع براء في ميدان الحرب بمحادثة قصيرة، فيتراجع عن القتال ويضم صوته إلى خصمه بكل صراحة.

ولكن هذا حدث بالفعل في التاريخ الاسلامي عندما التقى الجمعان في حرب الجمل، كانت القيادة تتمثل في جانب امير المؤمنين (علي ابن ابي طالب) (عليه السلام) بينما كان الزبير بن العوام من ابرز القادة (بل ابرزهم بالفعل) في الجانب الاخر، وعندما دقت ساعة الحرب، انبعث الإمام والقي سلاحه ودعى زبيراً _ للمفاوضة، فلما تمثل بين يديه تبادلتا بينهما

كلمات وفجأة تقبل الزبير فكرة الإمام بكل اقتناع.

اتدري أي اسلوب استخدمه الإمام امير المؤمنين (ع) في اقناع الزبير؟
لننقل لك نص المحاوره القصيره لتتعرف على الاسلوب الساحر فنتخذه:

قال الامام: انشدك الله الذي لا اله الا هو اما تذكر يوماً قال لك رسول
الله _ صلى الله عليه _ يا زبير _ اتحب علياً، فقلت وما يمنعني عن
حبه. وهو ابن خالي؟ فقال لك رسول الله: اما انت فستخرج عليه وانت له
ظالم {فقال زبير اللهم بلى}. فقال له الإمام افلست بايعتني طائعاً {فقال
الزبير بلى} فقال له الإمام (ع) {في هدوء الصديقين} افوجدت مني ما
يوجب مفارقتي فوجم ساعة ثم قال: لا جرم والله لاقاتلتك.

هل رأيت التحول الكبير.. انه معجزة من معاجز البيان والاقناع.

.. واذا اعجبك اقناع خصمك في بضع دقائق فاتبع القاعدة التالية:

امدحه وعظم ذاته في نفسه، في غزوة احد الشهيرة التي انتصر
المسلمون بقيادة الرسول الاكرم (ص) على قبائل ثقيف، وهوازن التي
شنت هجومها المستميت على مكة المكرمة، بعد ان

فتحت بايدي المسلمين. وحصلوا على مغانم كثيرة ورأى النبي (ص) ان يقسمها بين السادة من قريش ليربح ولانهم للاسلام، ويأمن مكايدهم ضده، واثار التقسيم غير المتساوي، حفيظة طائفة من المسلمين الذين أبوا ان تكون عليهم مسؤولية الحرب ولغيرهم مغانمها، فاستغلوها فنتة كادت ان تحرق جذور الاسلام، وتفسد فتوحاته.

انبأ الرسول بالقصة فجمعهم وبعد ان تحدث اليهم فترة وجيزة تابوا إلى رشدهم وتابوا إلى النبي وانقلبوا اليه مستسلمين. فكيف تحدث معهم، وبماذا افنعهم؟ دعني احديثك:

قال لهم: الم تكونوا ضلالا فهداكم الله بي. الم تكونوا متشنتين فوعدكم الله بي الم تكونوا على شفا جرف هار فانقذكم الله بي.

فقالوا _ بصوت واحد _ بلى يا رسول الله.

ثم قال لهم: لماذا لا تذكروني بأعمالكم قالوا وما لنا ان نقول يا رسول الله؟

اما لو شئتم لقلتم وانت قد كنت جئتنا طريداً فأويناك وجئتنا خائفاً فأمناك وجئتنا مكذباً فصدقناك فأرتفعت اصواتهم بالبكاء.

وقالوا: هذه اموالنا بين يديك فان شئت فاقسمها على قومك.

فقال النبي (ص): اللهم اغفر للانصار ولابناء الانصار ولابناء ابناء الانصار.

هذا هو الاسلوب المؤثر الذي اتبعه الرسول فتكلم _ ليست عن وجهة نظره فقط _ بل عن وجهة نظرهم ايضاً وايدي بهم الاهتمام ايضاً.. فاقنعهم اقناعاً.

عرفنا حتى الان على انه كيف تستقيم السنننا وكيف نحقق اهدافنا ونحن نحافظ على الاستقامة، واجب ان اتناول واياكم بحثاً هاماً حول موضوع (كيف تكسب اعجاب من يتحدث اليك؟).

في كل قلب شهوة الظهور فكل فرد يتحدث اليك يحب ان يتكلم اكثر منك عساه ينال الظهور عندك، فتعرفه اكثر من ذي قبل، فيقول واذا تم ما يقول ثرثر { فاذا نصبت الثرثرة، سب الناس ووقع فيهم، ونال من كرامتهم، فاذا طال حديثه اخذ في معارضة بعض ارائك لعله يستطيع ان يكسب جدالك فتشبع شهوة الكلام عنده.

وهنا اذا تكلمت اكثر منه فقد جعلت شهوة الظهور عنده جائعة منهومة، تدغدغه وتلح عليه، وتدعوه إلى ان يبغضك ويكرهك، وليس لكلامك موقع في قلبه بل وقد يحدث

عنده تحصناً عما تريد ان تقنعه من آراء وافكار ولذلك فان الناس يحبون المصغي إلى ارائهم وافكارهم اكثر مما يحبون المكثر عليهم آراء وافكاراً. مهما انتشرت الثرثرة، قل النشاط والجد ومهما ساد الإنسان الصمت انبعث وتفجرت طاقاته.

لقد كان صحابة الرسول من انشط من عرفهم التاريخ الإنساني رجالا في الحرب والسلم، ومن هنا كانوا من اطول الناس صمتاً واكثرهم سكوتاً، لقد كانوا يجلسون إلى الرسول (ص) وكأن على رؤوسهم الطير، يصفهم الإمام الصادق (ع) (كان بعض اصحاب رسول الله (ص) يضع الحصاة في فمه فاذا اراد ان يتكلم. تذكر لزوم اتباع الصمت من الحصاة التي في حلقه وربما يتحدث الإنسان فيعرف مخاطبه الكثير مما كان خافياً عنه ذلك لان للكلام لحناً لا يقصده المتكلم بينما يعرفه السامع جيداً ولذلك اعتماد الدبلوماسية اليوم على لحن الكلمات التي تقتر عنها شفاء الرؤساء او تبثل بها اقلامهم، وان اصدق الرجال في الاستخبارات العالمية اليوم هو الذي لحن كلمات رؤساء العالم ويكتشف منها ما تجري في افئدتهم، قال الإمام امير المؤمنين (ع) {المرء مخبؤ تحت لسانه}، وقال الله سبحانه: {ولتعرفنهم في لحن القول}.

ان من الطبيعي ان تدور في خلد الإنسان افكار لا يريد لها اظهار فاذا استرسل الكلام من دون ترو وتدبير خرجت من حيث لا يشعر، ومن هنا كان الكلام في وثاق صاحبه مالم يفه به فاذا لفظه انقلب صاحبه في وثاقه حيث عرف الناس اذ ذاك حقيقة وكشفوا سريرته، فيسهل عليهم ان يسددوا ضرباتهم من الزوايا المتهدمة في كيانه ويركزوا على نقاط الضعف منه.

أخي ان شئت ان يحبك من تتحدث إليه او ان شئت ان تسلم من الشرور فاعمل بالقاعدة رقم ١ (الزم الصمت).

عندما تفكر في قضية علمية مهما كانت صعبة لا تصرف من المبادلات الكيمياوية في جسمك الا بمقدار ما يصرفه كنفك عند رفع بضع جرامات، ومن هنا ليس للتفكير العلمي تاثير يذكر في جسم الإنسان، ولكن هل تدري ما هو الثمن الذي تدفعه بازاء برهة وجيزة من الغضب ان ذلك كثير وكثير.. لان اعصابك سوف تتحطم تحت ضغط الانفعال والتوتر، وشريانات جسمك تنتفخ بنشاط الدورة الدموية؟ ويتخذ كل ما في جسمك حالة غير طبيعية.

فابهما تختار لنفسك التفكير الهادئ ام الانفعال الثائر فان كنت تفضل الاول فتحمي عن الجدل مهما استطعت إلى ذلك

سيبلا لتوفر لنفسك طاقة كبيرة؟ أما من يخاطبك فان الجدل سوف يثير عواطفه إلى حد يستحيل أن يقتنع بآرائك، ولقد جريت ذلك وبنفسي مع كثيرين ممن أردت إقناعهم بآرائي فحاولت عبثاً أن أخضعهم لها بالجدل والمراء فلم يزددهم ذلك إلا إصراراً وعناداً ولكنني اقتعت بتجربتي هذه، بان العنف في الكلام لا يحقق الهدف ابداً فلجئت إلى اللطف واللين فاكتمت الجدل اولاً بتركه، ثم اتيت صاحبي من حيث لا يمس عواطفه بسوء، وتلطفت معه في بيان الفكرة من حيث لا يشعر باي ضعة او احتقار امام ايجائي اليه ولم يزل صاحبي امام هذه التجربة حتى استلان وتقبل الفكرة بكل اقتناع.

واصبحت الآن لا اراني اسقط معركة الجدل الا وافر منها بالتزام الصمت برهة يسكت خلالها عن صاحبي الغضب ويثيب اليه الرشد، فاعود إلى ايضاح الفكرة وبيانه ثم لا اغلب في ذلك ابداً.

نعم انه الصمت الذي يكسب الإنسان في بعض الاحايين نصراً عزيزاً لا يحرزه أي كلام.

في سنة (١٢٨٣) هجرية، تشرفت بزيارة الديار المقدسة وفي المدينة المنورة دار نقاش ديني بيني وبين موظف كويتي وكان

الرجل عنيفاً للغاية، واصبحت ويالبيس الصدف التمس اقتاعه بالعنف
ايضا، فقلت وقال حتى بلغ بنا الجدال مقاماً غير محمود ولم يزد
الخلافاً الا اتساعاً بعد اتساع والعناد قوة بعد قوة واضطررنا ان نترك
البحث على غير ميعاد وبدون اقتناع.

وعلمتني هذه المناقشة الفاشلة درساً اتبعته فيما دار نقاش فكري اخر
بيني وبين مستشرق الماني بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ لقد وجه
الي اسئلة اجبت عليها فاخذ يجادل فتركت البحث ثم ادرت دفعة الحديث
إلى موضوع اخر متحامياً عن المرء العايب فاذا به يقتنع _ بعد مزيد
من التذليل _ حتى بتلك الآراء التي حاول فيها من ذي قبل.

وفي المجتمع اناس مبتلون بمركب النقص يزيدون جبره بالكبر زاعمين
ان من يتكبر ينال العلياء والكبرياء.

ومن هنا يستصغرون سائر الناس. ولا يتقبلون آرائهم مهما كانت قوية
مبرهنة. وهؤلاء يحبون الجدال لذاته لا لكي يكون وسيلة إلى اقتناع او
اقتناع.

وأية هؤلاء انهم يدعون إلى النقاش ويثيرونه في اتفه الامور واذا تحدث
اليهم احد عارضوه _ بكل عنف _ قبل ان يتم كلامه وقبل ان يدركوا
مراده.

وخير للإنسان ان يدع هؤلاء وشأنهم ولا يتورط بجدالهم الذي لا يثمر سوى النفاق والبغضاء. وصرف طاقات وبذل جهود فكرية منهكة.

وأفضل الاساليب التي يجب ان تتبع لاقناع هؤلاء هو: ان يثير الإنسان مسألة نظرية ويطلب رأيهم فيما فانهم سوف يستروحون إلى ذلك كما تستريح المعدة الفارغة بكسرة رغيف ولكنهم لا يلبثون بعد ثرثرة ربما لا تدوم الا دقائق حتى يعترفوا بعجزهم وقصر باعهم وعند ذلك تتاح الفرصة للإنسان ليعرض فكرته في اسلوب التساؤل يقول: مثلاً: كيف ترى لو كان يفعل كذا او يقال كذا فما هنا نجد احدهم يوميء برأسه ويقول بكل غرور لا بأس به.

ومن الناس من يغتر بهؤلاء فيسقط في شباكهم ويشتبك معهم في نقاش تافه يرضي غرورهم ولا يحقق هدفه ولذلك فان الإسلام يحذر الناس عن ممارسة هذا الفريق من الناس في اكثر من مناسبة وياكثر من اسلوب.

يقول الإمام الصادق (ع) لا تمارين حليماً ولا سفيهاً فان الحلم يقلبك، والسفيه يؤذيك وقال امير المؤمنين: {اياكم والمرء والخصومة فانهما يمرضان القلوب على الاخوان وينبتان عليها النفاق}.

وقد يصبح الجدل عادة الإنسان من كثرة ما يمارسه ويستصعب اذ ذلك ان يتركه فعلى الإنسان ان يدع الجدل ولو مرة واحدة لكي لا يعتاده.

يقول النبي (ص) (لما اتاني جبرئيل قط الا ووعظني بموعظة فاخر قوله: لي اياك ومشادة الناس فانها تكشف العورة وتذهب بالعز).

وكلنا يحب السعادة.. ولكن لن يكسبها دون ان يترك الجدل، لانه يورث البغضاء ويحصد زهرة الحب، ويدع الاحياء منطوين على ردود فعل بالنسبة إلى بعضهم.. وكيف تهنأ الحياة في مجتمع متباغض رحل عنه الحب ونزل عليه الحقد!؟.

فلو احببت هناة العيش.. وسعادة الحياة، واقتناع الناس بأرائك ومحبة لك، ان توفر على نفسك من الوقت والجهد والطاقة فاترك الجدل إلى غير رجعة!.

مرفاً السعادة

صفة يشرح النفوس بهائها وسنائها وتهداً الارواح بهجتها وروعتها وتمثل
قمة المكارم الانسانية السماء.

انها الصدق مظهر اخر من مظاهر الاستقامة في النفس الكريمة _ ياتي
دورها بعد الاستقامة في الفعل المتمثل في الوفاء بالعهد _ الذي سبق
أنفاً.

الصدق {استقامة اللسان} فطر الإنسان عليه كما فطر على ان يكون
مستقيماً صريحاً.

ولو لا جوانب الضعف المؤثرة في هذا الإنسان {الذي خلق ضعيفاً} اذن
لما شرى الاستقامة باي ثمن غال ولما اعتاض بها أي شيء قيم.

ولكنه الضعف الذي ركب في الإنسان يجر البشر إلى الأرض بماديته
الكثيفة كلما اراد ان يخلق في اجواء القيم أو يطير إلى قمم الشيم
السماء.

وفي البشر جوانب ثلاثة تشكل الخطر العظيم على قيمه ومثله هي
جوانب الضعف.

١ - الخوف.

٢ - الطمع.

٣ - العقد النفسية.

فما لم تنزل على الفرد نوازل الضعف _ هذه _ من خشية قاهرة أو شهوة فائرة أو عقدة حقارة تدفعه إلى التماس جاه أو سلطان _ يبقى مستقيماً طبيعياً.

كالعود الندي الذي يبقى مستقيماً ما لم تعوجه يد ظالم أو لم تحمل ثمر ثقيل.

وعلى الإنسان ان يسعى في سبيل طرد جوانب الضعف البشري عن نفسه ليتمكن من التحليق إلى أي قمة وفي أي فضاء (فأولاً خشية ظالم) والإنسان الصريح اقرب إلى النجاة من الملتوي المنافق والإنسان الصريح لا يضعف امام الظالم فيكذب له وينافق لارضائه بل يتحده بصراحة. ويقضي عليه بحكمة.

الإنسان الصريح لا يعترف بالظلم بل يسعى لدفعه عن نفسه بالقوة لا بالضعف وبالنكير لا بالمرآغة والتحدي لا بالنفاق.

ولو ان من في الأرض كانوا صرحاء اقوياء لما كان للظالمين على الأرض قراراً ولا للظلم مكان وسيع.

ان الشعوب التي تثور على المستعمر الدخيل أو الحاكم المستبد

الظلم أو النظام الثقيل المنحرف لهي الشعوب التي يحق لها البقاء
والاستقلال والسعادة أو كما قال الشاعر:

عرش البقاء عقيدة وفداء وفم الخلود ضحية وإباء

الاباء عز تحلم الضيم كفيل بتحقيق عز الإنسان. وخلوده ومتى ما
حوسبت النتائج؟ رجحت كفة الاستقامة حتى في مقياس المادة على
الالتواء. لان عاقبة الصدق خير في الدنيا. وخير في الآخرة.

اما اذا اثرنا ان ننظر إلى الاشياء بعيون صغيرة لا تكاد تبصر بعد متر
ونقيس الامور بمنافعها المستعجلة دون ان ننظر إلى الاضرار الكبيرة
والعاقبة السوأى - فان الكذب قد يرجح في مقياس المادة العمياء دون ان
يكون له أي رجاحة في مقياس المثل الانسانية الرفيعة.

واليك في ذلك مثالا:

صاحب المحل التجاري الذي يكذب لمشتريه فيما يبائع في مدح سلعته
الرخيصة ليربح كثيراً فعلا يربح ربحاً موفوراً. ولكنه سرعان ما يكشف
الذباب بدلا من ان يعامل الزبائن. لانهم يكتشفون الواقع وينفرون من
هكذا إنسان منافق مراوغ نفوراً. وبعد ايام وشهور أو سنين _ على اكثر
التقارير تصيب محله الخسارة الكبرى التي

لا تتجبر .

وما يصدق في هذا التجاري يصدق على ذلك الرئيس وذلك الخادم صدقاً مساوياً .

اللهم بلى قد تنطلي خديعة الكاذب وجه نهار . ولكنه نجاح خادع يعقبه الفشل الذريع بعد ساعات قليلة .

والعكس بالعكس فقد يصيب الصدوق ضر بصراحتة أو اذى أو ضيق ولكنه سوف يريح الصفقة اخيراً فيما يكتشف الناس حقيقته ويضعون ثقتهم فيه .

وهنا يجدر بالإنسان ان يفكر في قيمة الربح الحاضر القليل أو القادم الكثير . فان كان عاقلاً رجح الآخر وان كان اخر .

ولربما تكون الاستقامة مجرة الضر في واقعه ولكنها سوف تكون رابحة اذا نظر اليها الإنسان من هذه الزاوية، ان قيمة اعتياد الفرد بالخلق الطيب عالية جداً . وانه يعني تغلب جانب القوة المتمثل في الصراحة والصدق وسائر المثل الإنسانية . على جانب الضعف وانه يحتاج إلى قوة الارادة والصبر والصمود، وكما ان الإنسان اذا اراد ان يصبح سليم الجسم قوية العضلات وجب عليه ان يصبر ويجهد في لعب الرياضة وحمل الاثقال، وقد لا تكون الرياضة بنفسها راقئة له ولكنها سوف تصبح طريقاً

للتمرن وهو طريق القوة وهي بدورها غاية محبوبة فتكون الرياضة شائقة رائقة لأنها طريق القوة اقول وكما تكون الرياضة الجسمية هكذا فكذلك الارتياض الروحي. وحمل النفس على مكارم الخلق قد لا يكون غاية _ وهو غاية ايضا في اغلب الاحايين _ لكنها سوف تبقى وسيلة إلى غاية طرد الضعف من الكيان الانساني وتبديله بالقوة.

فالصدق الذي يجر ضرراً أو يجر على الفرد ربحاً ونفعاً قد يكون بنفسه غير شائق رائق. ولكنه طريق إلى التعود عليه _ فمن صدق مرة تقدم إلى الاعتياد به خطوة _ فيلزم ان يغتدي رائقاً شائقاً من هذه الوجهة.

وتأتي عقدة الحقارة لتشكل العامل الثالث للكذب والجانب الثالث للضعف البشري.

وعلينا ان نتناولها بمزيد من البيان ليسهل على القارئ ان يطردها عن نفسه طرداً لا ترجع بعدها ابداً.

عقدة الحقارة

مرض سيكولوجي يصيب النفس البشرية من العوامل التالية:

١ - الشذوذ الخلقي الطبيعي الذي يدعى {السكيبائي} فهناك طائفة من الناس يولدون منحرفين خلقياً ولا يمكن علاج هذا النوع من المرض في علم {الاخلاق} بل حيث ان القول المختار في العلم الحديث: ان الشذوذ مرض عقلي قبل ان يكون حالة نفسية.

ولقد صد الإسلام ابواب هذا المرض بتحريم الزنا ودفع القلق وتحريم المسكر من عوامل هذا المرض الخطير في الاولاد.

٢ - الانتساب إلى بيئة سيئة الخلق. أو ممتهنة المكانة في المجتمع. فان ذلك عامل مؤثر في خلق عقدة الحقارة.

ومن هنا كان على المجتمع الكف عن امتهان أي إنسان واية اسرة لكي يتحاموا عن ابتلائها بهذا المرض الخطير الذي يشكل خطراً مباشراً على الحضارة الانسانية في كل مكان!.

٣ - التربية السيئة. وكثيرا ما تكون تحقير المربي للطفل الناشئ أو تدليله أو تفضيله على سائر اخوته أو تفضيل اخ له عليه _ عاملا في نشوء {صد الحقارة وعقدة الحقارة فيه}.

ومن هنا يتحتم على الاولياء أن يقصدوا في التربية فلا يمتهنوا الطفل ولا يدلوه. بل يتخذوا بين ذلك سبيلا.

في الطفل طاقات هائلة تستلزم التوجيه الصحيح وهي تتفجر

واحدة تلو الاخرى. فحب الذات واحترام الاخرين، وحب الاستقامة والصراحة كلها طاقات تتفتح في كيان الطفل شيئاً فشيئاً.

فعلى الموجه _ سواء كان الولي أو المربي _ ان يلاحظ هذه الطاقات فيستفيد منها دون ان يقصر على احدها في حساب الاخر، يجب ان يدرك ان الطفل إنسان يحب نفسه فأية محاولة ترمى إلى النزاع هذا الحب عنه محاولة فاشلة سيئة. اجل توجيه هذا الحب فريضة محتمة على المربي بان يعرف الطفل ان حبه لذاته لا يعني ان يبغض الاخرين بل على العكس ان حبه لذاته ودفاعه عنه يوجب عليه مراعاة حقوق الاخرين لانه متى راعى حقوقهم راعوا حقوقه. ومتى ما اهملها اهملوا ايضاً.

ويعلم ان الطفل يكبر نفسه. ويعجب بها ويطمع ان يبلغ بها كل مبلغ رفيع فأى محاولة للقضاء على هذا الشعور بان يبين للطفل بانه عاجز عن بلوغ هذا الهدف أو تحقيق ذلك الامل فهي محاولة ليست فاشلة فقط بل انها سوف تخمد صدى الانطلاق وتقتل نشاط الطموح من نفس الطفل المسكين. فيكون دنيا مهنيا واطناً فيما يعمل وفيما يأمل.

اجل على الموجه تربية هذا الشعور الطبيعي بان يبين له ان آماله كلها سوف تتحقق اذا اتبع منهاجاً اخلاقياً فاضلاً.

ومن هنا فان الشعوب التي تلتجئ إلى الضعف. وتبدي من نفسها النفاق والمراوغة. وان تتطوي على بغض المستعمرين الدخلاء والحكام المستبدين والنظم الفاسدة دون ان تظهر ذلك باعلان وصراحة.

الأمم التي تنذرع إلى الكذب والالتواء. ودخول الحياة من الابواب الخلفية السلبية. وتهرب من تحمل مسؤولية الصدق والاستقامة.

ان هذه الأمم لا يحق لها ان تدعي لنفسها الحق في الاستقلال والحرية والحياة السعيدة الهادئة.

فعلى الإنسان ان اراد عيشاً سعيداً وحياة هنيئة ان يتحدى الظالم القاهر بالصراحة والاباء متحملاً مسؤولية ذلك بكل شجاعة واقدام. وبذلك يطرد عن ذات نفسه جانبا من جوانب الضعف ويبدله بالقوة: الا وهو: الخضوع للظالم، بممارسة الالتواء. وما يقال في الفرد يقال في الشعب سواء.

هذا: ويجب على الإنسان ان يطارد الخوف عن نفسه بشتى الاساليب الممكنة لان اكثر موجبات الخوف ناشئة من الضعف الداخلي وليست من قياس علمي أو عقلي.

وحتى لو كان الخوف على جانب من الصحة فان كثيراً

من الذين صدقوا في الساعات الحرجة دون ان يأبهوا بالشر المحقق بهم لم تصبهم الضراء التي خافوا منها. وقد اوجز الرسول لهذه الحقيقة في كلمته الرائعة: {اجتنبوا الكذب وان رايتم فيه النجاة فان فيه الهلكة}.

أتي الحجاج بن يوسف الثقفي بطائفة من اعدائه اسرى وأضمر قتلهم فقام منهم رجل يقول له لي عليك حق يا امير قال ما هو؟ قال لقد كنت في مجلس عبدالرحمن (احد معارضي سياسة الحجاج) فدافعت عنك عنده فقال: لك على ذلك شاهد؟ قال نعم هذا واثار إلى رجل صدقه في ذلك فقال الحجاج للشاهد لم لا تدافع انت عني ان كنت شاهد المجلس؟

فقال الحجاج: اطلقوهما معا هذا لدفاعه عني وهذا لصدقه لدي!.

(وثانيا: شهوة تلح).

وعليه ان يدفع عن نفسه نقطة ضعف اخرى هي {شهوة تلح} فما اكثر الرغبات التافهات التي تقضي على شرف الاستقامة في الإنسان وتدعه مجموعة عظم ولحم ودم يقوم بسبعين كيلوغرام وعشرة دراهم في كل يوم.

وعلى الإنسان ان يحسب النتائج دون ان يعتني بالجزئيات الصغيرة الحقيمة في حياته العملية.

وكذلك يوجد في الطفل نزوع إلى الاخرين ورغبة في التعاون معهم ويجب على الموجه الا يقضي على هذا الحب بابداء الاشمزاز معه وعدم الاكتراث بأعماله واقواله. أو نقده نقداً سلبياً مقيناً أو اهانتته في المجلس على اعين الناس. واخيرا كل ما يدعو الطفل إلى الشعور بان هناك حجاباً حاجزاً بينه وبين سائر الخلق.

بل يوجهه بالايحاء إليه بان الناس يحبوك ايضاً ويحبون مثلما تحب ان يتعاونوا معك. ولكن ليس معنى التعاون ان تتكل على الاخرين في كل الامور، وتطلب مساعدتهم حتى في الشؤون الخاصة التي يمكن لك القيام بها وحدك.

وهكذا تكون مشاعر الطفل الطائشة الثائرة، احوج ما تكون إلى التوجيه الصالح الذي يتمناه الولي ليتحامى عقدة الحقارة وبذلك تصبح التربية مؤدية مسؤوليتها الخطيرة في الحياة.

وبهذا كله يستبين لنا ان الحل الايجابي الوحيد الذي يمكن للإنسان استعماله تجاه مشكلة {عقدة الحقارة} الناشئة من التربية السيئة. انما هو باصلاح التربية وجعلها {تربية صالحة}.

هذه هي العوامل الثلاث الرئيسية لعقدة الحقارة. وهذه هي

الاسباب التي تمنع عن نشوئها في الإنسان. اما الحلول الحاسمة التي تعالج هذه العقدة فانها توجز:

١- يوحى إلى نفسه هذه الحقيقة التي هي: وجود شخصية محترمة له بين الآخرين.

٢- يسعى لاجل تثقيف نفسه بالثقافة الموجهة كالتاريخ والفلسفة وما اشبه ذلك لان الثقافة تضي على الفرد نضوجاً واعتدالاً.

٣- يسعى لاسداء خدمات اجتماعية ترفعه مقاماً محموداً لدى الرأي العام وليتذكر ان التاريخ انجب كثيراً من النوابغ كانت عقدة الحقارة هي الطاقة التي استخدموها وقوداً لسيرهم الصاعد نحو القمة.

٤- يفكر _ بدقة وعمق _ حول الفائدة التي يجنيها من المراوغة والنفاق وما إلى ذلك من الوسائل اللانسانية التي تشفي مركب النقص في نفسه ان منتهى ما يتصور في ذلك السيطرة على آراء الناس سيطرة محدودة. ثم ليفكر هل يحتوي هذا الريح في ازاء الثمن الذي يدفعه من نفسه. حيث تضحي بأنسانيته تسمو به عن الحيوان. وتكرمه بين الخلائق.

في حين يخسر ثقة الناس الطبيعية، ويفقدها يفقد مكانتها التي

يريد ابقائها واقرارها على قاعدة متينة.

ومن هنا فان عليه ان يتجنب العلاج السلبي لحس الضعة ويبتدئ بالتفتيش عن حلول ايجابية.

فان كان في نفسه عيوب اصلحها.

ثم سعى في بناء مجد رفيع عن طريق مستقيم. بالصدق والاخلاص والنشاط والتضحية والصبر. بكل ذلك سوف يبني مجده العالي الخالد.

والصدق سد منيع امام الشهوة البشرية النائرة الطائشة! ذلك لان الإنسان يحب ان يحمد عند الاخرين فيتجنب كثيراً من الجرائم ويعمل كثيراً من المكارم لغاية واحدة هي (حمد الناس) له.

والكذب يفتح امام الفرد بابا عاليا إلى استغلال هذا الحب استغلالا غير مشروع. فيقترب الجريمة ويعطيها بالكذب ويترك المكرمة ويدعيها مينا وخداعا.

ولكن الصدق يصد هذا الباب صداً منيعاً فيستخدم الشعور بحب المحمودة لدى الناس في سبيل خير المجتمع واشاعة الفضيلة فيه ومنع الجريمة والمنكر عنه.

ويصور لنا هذه الحقيقة الحديث التالي تصويراً رائعاً:

لجاء رجل يسعى إلى النبي (صلى الله عليه وآله

وقال له: يا رسول الله دلني على عمل اتقرب به إلى الله تعالى فقال: لا تكذب.

وانقلب الرجل إلى اهله جذلاً مسروراً. فما يسر على الإنسان ترك الكذب وانه مجرد تهذيب للسان عن اللقطة الزائدة. ولكنه سرعان ما اكتشف ان الرسول (ص) حمله واجبا ثقيلًا.

{لانه لم يقصد وجها من وجوه المعاصي الا وجد فيه كذبا أو ما يدعو إلى كذب فزال عنه ذلك من وجوه المعاصي}.

العدل والاحسان قاعدتا السعادة

ان في طبيعة الإنسان _ طاقتين _ قديرتين _ هما: العقل والعاطفة إذ تتبعث من كل واحدة منهما - سلسلة - من القوى التي تبعث بالفرد والمجتمع اسمى مقام - وارفعه - لو استخدمت للاغراض الصالحة.

والعقل - متأخر - في بروزه عن العاطفة - فبينما - نرى ان الطفل يأتي إلى العالم حاملا - بين تراثيه - جذوة من العاطفة - وتنمو سريعا - نجد انه لا يكتمل العقل في الإنسان - الا بعد البلوغ - بل - لا يصل منتهى نضجه الا بعد الثامنة والعشرين!!

ان معدل وزن المخ - العضو الذي يلتقط اشعة العقل - في الوليد هو: ٣٣٠ غراماً في الابن ٢٨٣ غراما في البنت ولا يبلغ ١٣٧٤ غراما الذي هو معدل وزن المخ في الرجل الكامل ولا ١٢٤٤ الذي هو معدله في المرأة الكاملة - الا بعد السنة الرابعة عشرة فقط.

بينما يشعر قلب الوليد بحب الذات - والدفاع عنها والحب

فيها - في الاسابيع الاولى في حياته - بل اللحظات الاولى منها.

ولقد اكدت التجارب اخيراً انه ليس الوليد الجديد - كما يزعم - بعض الناس - حفنة مجموعة من عظم ولحم ودم - وانما هو - إنسان كامل - يسير نحو التكامل بسرعة مذهشة ويلتقط صوراً عن الحياة يخترنها في حافظته - ويتعود بكيفيات العالم واحوالها - وهو بعد ذلك يحب ويكره.

والاسلام حيث انه دين يراعي كافة مناحي كيان الإنسان - وسائر عناصر وجوده - يولي كل واحدة من العقل والعاطفة نصيبهما المفروض من العناية والرعاية.

فمن العقل ينبعث العدل - ومن العاطفة يتفجر الاحسان - والاسلام يأتي فيأمر {بالعدل والاحسان} معا.

يأمر بالعدل - لكي يحفظ توازن الشعب - فلا يطغى قوى ويهضم ضعيف - ويأكل مقتدر - ويؤكل - مستهان.

يامر بالعدل - لانه مقياس النظام الصحيح - والنظام روح الحياة - فدنيا بلا نظام انما هي دنيا بلا روح - وبلا حياة أرأيت - لو سلخ الكون عن النظام ماذا تكون النتيجة -؟ النتيجة هي الصفر - فاسمعي اقول: لو فقد الكون نظام تماسك الاشعاع الذري - لانتقلب الوجود إلى العدم فوراً - ولو فقد هذا الكوكب نظام

جاذبيته فزادت أو نقصت - لانقلاب إلى حطام - وليس فيه حياة ولو
فقدت المنظومة الشمسية نظام حركتها - لتحولت إلى رماد - وقامت
قيامتها الكبرى - ولو فقدت - المنظومات الشمسية والمجرات - بعض
نظامها - لاصبحت النتيجة فناءً في فناء.

فبالعدل خلق الإنسان ورزق - وبالعدل بنى كيانه - وتماسك عناصره -
وركبت تركيباً - وبالعدل ايضاً يجب ان يولد الإنسان بسلام - واطمئنان
- لا تتناقض قواه - ولا تتصادم.

ويأمر بالاحسان - لانه - شعلة دافئة. تخفف من وطأة الحياة -
وقسوتها - وانبعث حلو - يمتزج بمر العيش - فيطيبه - ويهئنه -
وغنوة حبيبة تجري في اعصاب الكون فتهدئها - وتسكنها-.

يأمر بالاحسان - لان الحياة، بدونها أبرد من قلب الخائف وأقتم من لون
الرعد واشد - من سريرة القتاد -.

يأمر بالاحسان - لان العاطفة غريزة اصيلة في كيان الإنسان - فالغض
عنها - يعني الغض عن اقوى عناصر الحياة - والاحسان - انما هو
كهربية عاطفية تنمي الحب - وتزرع الوداد - فيجب ان تلاحظ وتراعى.

ان العقل والعاطفة يجب ان يتعاونوا في اسداء حياة سعيدة للإنسان -
فيجب اذن - ان يعتبر بالعدل - وليد العقل - والاحسان

- وليد - العاطفة جنبا إلى جنب لتحقيق - الهدف الاساسي - للإنسان
حياة - هادئة وديعة.

يقول القرآن الكريم: ان الله يأمر بالعدل والاحسان.

ويقول: اعدلوا هو اقرب للتقوى.

وعن ابي الحسن عليه السلام: ان اهل الأرض لمرحومون ماتحابوا وادوا
الامانة. وعملوا الحق.

يشير هذا الحديث إلى ان عناصر الحياة القريرة الرفيعة - تنحصر -
في ثلاث: الحب والعدل - والحق -.

إيه امام الحق - صدقت - : فأهل الأرض لو؟ تحابوا - لما تحاربوا
واقنتلوا ولو عدلوا - لما جاروا - وضعفوا - ولو عملوا بالحق - اذن
لبلغوا قمة آمالهم - من السعادة والرفاه.

وعن ابي عبدالله - عليه السلام: تواصلوا وتباروا وتراحموا وتعاطفوا وعنه
ايضا يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون.

واليكم قصة حياة - رجل - مثل الإسلام اروع تمثيل الا وهو الإمام امير
المؤمنين - علي عليه السلام - انها سوف تشرح لنا اولا حقيقة العدل
والاحسان - وواقع مفهومهما - وثانيا مدى اهتمام الإسلام بهما
كحقيقتين لكل منهما شأن عظيم - بالنسبة إلى الإنسان.

رأى الإمام ذات يوم - امرأة تحمل قرية - بجهد شديد - فتقدم إليها يقول
يا امة الله ناوليني أياها - فلما اخذها - اندفعا في الطريق واخذت المرأة
- تثبت شكواها إليه - وتقول: ان علياً - وطبعاً لم تكن تعرف علياً قد
بعث زوجي إلى الحرب فقتل - فعدونا بلا متكفل يسد حوائجنا - ويدفع
الاذى عنا - فلما كان الغد حمل علي شيئاً من الطعام دقيقاً ولحماً اليهم
فلما كان على بعض الطرقات استقبله اصحابه، وارادوا كفايته عن حمله
فقال: من يحمل اتقالي يوم القيامة؟ وراح حتى وقف على باب دارها -
ودقه: قالت: من بالباب فاجاب: الذي اعانك يوم امس - قد جائك اليوم
بطعام، ففتحت الباب وهي تقول: رضي الله عنك: وحكم بيني وبين علي
بن ابي طالب!

فقال لها: (ع) اتخيزين - ام ترعين شؤون الاولاد حتى - اخبز قالت: انا
اقوى على الاخياز فراع اطفالي - .

ثم راحت المرأة تعجن الدقيق - لتخبزه - وراح - علي - يشوي اللحم
ويلقمه اولادها مع التمر ويقول - إذا لقمه ولدأ:

أي بني: اجعل علي بن ابي طالب فقي حل..

وبينما المرأة تعمل الخبز - اذ دخلت الدار احدى جاراتها

- فدهشت حينما رأت عليا (عليه السلام) في الدار!؟

فاسرعت إلى المرأة تقول:

ويحك هذا امير المؤمنين!

فبادرت المرأة، تقول: واحيائي منك يا امير المؤمنين!!

فقال: بل واحيائي منك يا امة الله فيما قصرت في حقك ١.

ان العدل كان يقضي ان يحشد علي - امير المؤمنين - عليه السلام اكبر قوة ممكنة من الجيش ضد معاوية دفاعاً عن قضية الحق - وتحكيما لاسس العدالة - فكان من الطبيعي ان تبيد الحرب كثيراً من الرجال - وترمل عديداً من النساء -.

ان هذا هو العدل - وامره هنا قاس - اشد ما تكون القسوة - بيد ان الاحسان سوف يخفف من قسوته وعنفه بعض الشيء.

فان المرأة هذه لم تكن تقتنع بالف دليل ودليل لو كان علي - عليه السلام - يشاء ذلك مجرداً عن الاحسان ذلك لان المرأة انسان عاطفي: قبل ان تكون انسانا عاقلاً مفكراً - بيد ان جذوة من دفن الاحسان استطاعت ان تؤثر في نفسها. وتهده قلبها في اقرب فرصة.

ان العدالة تحتل المنزلة الاسمى بين القيم الانسانية ويجب ان

تقف كل طاقات الإنسان في سبيل الدفاع عنها لدى عروض ما يهددها
أو يشكل خطراً عليها.

يقول الإمام علي عليه السلام:

{والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان اعصي الله
في نملة اسلبها لب شعيرة ما فعلت!}

وان دنياكم اهون عندي من ورقة في فم جرادة، فما هي قيمة دنيا بلا
عدل. دنيا بلا فضيلة دنيا بلا قيم انسانية خير لهذه الدنيا الا تكون.

ان الإنسان يعيش بجسمه وروحه. وما اضر بجسمه ونفع روحه أو افاد
جسمه واضر روحه. كان بهذا عزاء واما الذي افسد هذا وهذا معاً.
فالموت خير من الحياة والظلم من هذا النوع المفسد المهلك المبيد.

وان القانون الطبيعي الذي يكشفه لنا القرآن يقضي على صاحب الظلم
ان يحصد ندامة وشرّاً مستطيراً: يقول الله في الكتاب:

{انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق
اولئك لهم عذاب اليم}.

{وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون}.

وقد يحلو للإنسان ان يظلم استجابة لمصلحة مادية أو عرض دنيا زائلة.
ولكن عليه ان يفكر .

ليس في العالم اقوى مني فان كان الظلم جائزاً شائعاً افلا يمكن ان يهضمني هذا القوي. وقد تقول ثم ماذا سوف اظلم الان وانتظر الظلم بدوري. ولكن عليك ان تفكر في انك تعيش في وسط اجتماعي تحتاج إليه اكثر مما يحتاج إليك ويقوى عليك اكثر مما تقوى عليه فلو اصبحت الظلم مفهوماً شائعاً وعادة مستمرة اذن لاصابك من ظلم الناس لك اضعاف ما تفعله بهم.

يقول الإمام الصادق عليه السلام كاشفاً عن هذا الواقع الطبيعي لمن يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به.

{اما أنه يحصد ابن ادم ما يزرع وليس احد من المر حلواً، ولا من الحلو مرأً}.

{من ظلم سلط الله عليه من يظلمه أو على عقبه أو على عقب عقبه}.

أو ما يصيب الظالم من جراء عمله فصل مادي ونفسي بين نفسه والآخرين الذين تعتبرونه رجلاً مجرمًا بغضًا. فيخسر تعاونهم في الحياة هذه التي لا تصلح الا بالتعاون والتكافل.

فالشريك الذي يهضم حق شريكه. لا يشترك معه احد.

ومدير الشركة الذي يعتدي على اموال المساهمة لا يعتمد عليه في ادارة شركة اخرى بعد ان تسقط شركته عن الثقة الاجتماعية.

ولقد ضربت نكسة حزيران اصدق الامثلة لذلك حيث تعاون الشعب الاسرائيلي مع دولتها المنتصرة الغالبة. فخفضت الشركات قيم سلعها. واقدمت عروضاً كبيرة للدولة بينما احتكر تجار العرب في بعض الدول العربية المتضررة بالنكسة احتكروا المواد الغذائية حتى اضطرت الحكومة إلى اتخاذ اجراءات حاسمة بشأنهم بل والى استيراد مواد غذائية من خارج البلاد.

ولم يكن ذلك الا نتيجة حتمية للظلم الذي مارسه بعض التجار على الشعب فجعلته يبتعد عنها فراسخ واميالاً.

والرئيس الذي يظلم في الحكم لا بد الا ينتخب مرة ثانية والا يتعاون الشعب معه في سراء أو ضراء.

وهكذا كل فرد.

فاذا بالظلم يعيش في فراغ مريع وهنا يتبين عهد ظلم الناس به اذ ان المجتمع، لا يملك مقياساً دقيقاً يجازي الإنسان بقدر جرمه بل سوف يزيد على ذلك انتقاماً واحتياطاً ومن هنا نجد ان الفرد يهضم حقاً واحداً مثلاً. فتسلب عنه ثقة الناس في كل الحقوق.

ولربما تزعم - يا من تقرء هذه السطور - ان الكلام حول الظلم يختص بطائفة من الرؤساء والمدراء وأصحاب رؤوس الأموال واولي القوة والسلطان - لا - ليس الامر كذلك ان مجالات الظلم واسعة ومختلفة. فالضعيف يظلم القوي إذا لا يطيعه في الذي يجب ان يطيعه فالعامل يكسل والصانع يغفل والولد يسيء إلى والده، والمريض لا يتعاون مع الدكتور في وصاياه وهكذا فكل ذلك ظلم.

والقوي يظلم حينما يهضم الوالد حق ابنه والمدير حق موظفيه والزوج حق زوجته وهكذا.

ولئن كان الظلم وخيم العاقبة في الدنيا فكيف هو في ميزان العمل عند الله.

الا تأتينا نصغ إلى الرسول - صلى الله عليه واله - يشرح لنا مغبه في الحياة الاخرة يقول:

{جور ساعة في حكم اشد واعظم عند الله من معاصي تسعين سنة}

{انقوا الظلم فانه ظلمات يوم القيامة}

{أوحى الله إلى داود قل للظالمين لا تذكروني فان حقاً علي ان اذكر من ذكرني، وان ذكرني اياهم: ان العنهم}.

أرأيت رحمة اوسع ومغفرة اشمل وحنانا ادفاً من رحمة الله وحنانه وغفرانه؟
ان هذه الرحمة الوسيعة تحبس عز الظالم فلا يمكنه حتى ان يذكر الله بكلمة.
وبالقدر الذي ينذر الإسلام من عاقبة الظلم يبشر بعاقبة العدل بالحسنى فيقول
الرسول:

{عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة}

{قيام ليلاً وصيام نهارها}

ما اسهل الصيام والقيام إذا قورن بالعدل حينما يخالف مصلحة الفرد وشهوته
الملحة العنودة وما احلى العدل في هذه الحالة التي تميز الإنسان وتسمو به
عن درك الحيوان إلى قمة إنسانيته العليا.

وليست إنسانية الإنسان تقف على هذا الحد وان كان رائعاً جميلاً بل انها تأتي
الا ان يدخل الإنسان روضات الإحسان - وما هو الإحسان:

الإحسان فيض سخي ينبع عن كرم النفس البشرية واسمى قمة تبلغها في مسيرة
القيم الرفيعة.

ان المجتمع الذي يعيش في ظلال الإحسان هو المجتمع المثالي الفاضل الذي
لا عهد له بالسجون ولا حاجة له بالمحاكم بل ولا إلى

حكومة ونظام.

ومن يحسن إلى الناس بيد واحدة. فانه سوف يكسب ايادياً كثيرة لانه
يخلق لنفسه وسطا محسنا. فيحسن إليه في كل شيء.

في نفس الوقت الذي يكسب محبة الناس ويربح ثقتهم ومتى ما وضع
فريق من الناس ثقتهم في فرد فهنيئاً له وهنيئاً لهم. وهنيئاً له اذ يذهب
بخير الدنيا والاخرة. ويعيش حياة هادئة بلا قلق ولا اضطراب.

وهنيئاً لهم اذ يوجد جمعهم ويتم شملهم. ويصبحون خلية اجتماعية
مترابطة متكافلة. لانهم يرجعون جميعا إلى واحد في أعمالهم وآرائهم.

فما اجر بك ان تحسن إلى المجتمع وانت احوج إليه منه اليك انت
عضو من المجتمع فكن عضواً قديراً مباركاً.

ويقدر ما يكسب المحسن في الدنيا من الاجر الجميل. ويجني من الثمرة
المباركة يفوز في الاخرة برضوان الله وبقبلة عرضها السماوات والارض.

فهذا الرسول يحدثنا بذلك فيأتينا بالعجب العجاب:

{إذا كان يوم القيامة ينادي مناد يسمع آخرهم

كما يسمع اولهم فيقول: اين اهل الفضل؟ فيقوم عنق من الناس فتستقبلهم
الملائكة فيقولون ما فعلكم هذا الذي نوديتم به؟ يقولون كنا يجهل علينا
في الدنيا وبساء الينا فنغفوا}.

فينادي مناد من الله تعالى: صدق عبادي خلوا سبيلهم ليدخلوا الجنة بغير
حساب}.

ان اصرار الإنسان على اخذ حقه من الناس اذا لم يكن من اهل الفضل
الذي يحفظ له الناس يداً طويلة ومعروفاً مشكوراً.

فان احببت ان تكون سعيداً في حياتك الدنيا والاخرى فكن محسناً، فان
الله مع المحسنين.

الوفاء مقياس السعادة

في كيان الإنسان غرائز لها جذور راسخة عجنت بها طبيئته ومزجت بها مزجا.

ومنها ما تطرؤ على الفكر بعوامل خارجية من تربية وتوجيه.

والاستقامة في القول والفعل من تلك الغرائز التي تجري من ذات الإنسان وتتبع من صميم كيانه جريان الماء الزلال من النبع الصافي.

يدرك كل شخص إلى اية امة انتسب وفي أي نوع من المحيط عاش وترعرع - يدرك ادراكاً فطرياً ان الاستقامة خير وان الالتواء شر وفساد.

ومن مظاهر الاستقامة في الفعل الوفاء بالعهد الذي يعتبره كل شخص في العالم مسؤولية انسانية من حملها ولم يحملها فقد اقتترف سيئة كبيرة خطيرة.

وما ذلك الا لان الوجدان الفطري الذي يشع في ضمير كل إنسان يدعو إلى الوفاء فريضة ومعاشا.

ودليل هذا الوجدان الطفل الذي لم تؤثر فيه التربية والتوجيه

ولم تحجب صفاء وجدانه مصالح الحياة ومتطلباتها فانه يدرك حسن الوفاء منذ الوقت المبكر الذي لا يدرك فيه أي شيء اخر من المسائل الفكرية فاذا وعد وليه بشيء ان يجلبه له من السوق ظل ينتظر طيلة غياب الوالد انتظاراً طبيعياً. وفي فرض خلفه للوعد يشعر بان امرأ غريباً وغير طبيعي قد حدث فيتألم ويكاد يميز غيضاً.

واذ بعث الانبياء لكي يخلصوا وجدان الإنسان من اصدائه وحجبه ليعود إليه صفائه وسنائه ونوره وضيائه - فانهم يدعون إلى ما يدعو إليه الوجدان ويهدون الإنسان إلى ما يرشد إليه من وظائف ومسؤوليات.

ومن هنا نجد تعاليم السماء تؤكد على الوفاء بالعهد وتعتبره وظيفة حتمية لا يسع الإنسان الا اداؤها بكل امانة واذا بالوفاء يصبح مسؤولية اجتماعية تقرضه التعاليم التربوية للأنبياء في نفس الوقت الذي هو مسؤولية انسانية.

ومن هنا ايضا اعتبر الإسلام الوفاء فريضة على كل مسلم ومسلمة فيقول الكتاب الحكيم.

{وافوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً}

ويقول النبي (ص)

{لا دين لمن لا عهد له}

ويقول الإمام الصادق (ع)

{عدة المؤمن اخاه نذر لا كفارة له}

ويقول الإمام علي (ع)

لوان عقدت بينك وبين عدوك عقداً أو البسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وادع ذمتك بالامانة فانه ليس من فرائض الله سيئ الناس اشد عليه اجتماعا مع تفرق اهوائهم وتشتت ارائهم من تعظيم الوفاء بالعهود.

والوفاء بالعهد يبعث الثقة في روح المجتمع فتتماسك اطرافه ويتراص بنيانه على قاعدة مثبتة هي الايمان بحق الاخرين والسعي وراء ادائه.

وعلى العكس فان المجتمع الذي يفقد ابناؤه الوفاء تضعف فيه الاواصر. وتوهي العلاقات. ويصبح متناثر الاعضاء متفرق الاهواء.

بينما المجتمع الذي تشيع فيه فضيلة الوفاء وضبطت فيه مواعيد العمل في المصانع والمتاجر والادارات وما اليها فانه تجري شؤون الحياة فيه سهلاً بسيطاً طبيعياً.

ان من يعهد إلى احد يحمل نفسه حقاً فان اداه والا باء بخطيئة ظلم الناس. والتعدي على حقوقهم المشروعة افليس قد وثق الموعد له بقول هذا. اذا فالخلف غدر له وتضليل وخداع.

وفي الوقت الذي يعد الخلف ظلماً للناس يجب ان يعد ظلماً نفسه. اليس الخلف يوجب مقت الناس ويسلب ثقتهم. أو ليس المخلف يخلق مجتمعا مخلفا حوله وفق قانون التأييد المتقابل في الناس فيبوء بذنبه وذنوب الناس. ويجني ثمرة الخلف النكدة بدوره من يد الناس.

الان جرب مع الناس اولاً عدمهم فلا تفي فانظر هل يقبل الموعد له وعدك مرة اخرى ويثق بعهدك وثانياً اخلف العهد فانظر لترى هل تستطيع ان تطالبهم بالوفاء بعد ذلك. ان طالبتهم طالبوك وقاسوا عليك شؤونهم ثم احسب لترى كم مدة تصرف عبثاً من اجل خلف الوعد. وكم طاقة تهدر بسبب فقدان الثقة.

واني شخصياً حسبت المدة التي تفوت ضحية للخلف بالنسبة إلى كل فرد فاذا بها ساعات كل يوم. فاذا قيست هذه الساعات بالنسبة إلى الناس عرف مدى حضارة الإنسان من وراء الخلف. اضف إلى ذلك ان الوفاء فضيلة انسانية يتجلى فيها كرم النفس في اروع صورها. ولو فرضت للمكارم صورة مجسدة

فاضحى الصدق لسانها الناطق. والعفاف عينها الباصرة. والصرافة جبهتها
الناصعة اذن لكان الوفاء جمالها الباهر .

{او كما يقول الامام: الوفاء بالذمم زينة الكرم} ذلك ان الصدق جميل في كل
مكان. ولدى الوفاء به اجمل والصرافة حلوة وعند العهد احلى. والعفاف دافئ
ومع العهد ادفاً{.

ومن هنا اضحى الوفي محبوبا لدى البر والفاجر - العالم والجاهل - أوليس
الوفاء سخاء الطبع الكريم. والنفس الاريحية اوليس الإنسان يحب الفضيلة انى
كانت وفي أي صورة وجدت.

ومن هنا نجد المسلمين الاولين الذين عرفوا بالوفاء في الحرب والسلم: استقبلهم
العالم بكل رحابة صدر وطلاقة وجه فاذا بالشعوب تشيد فيهم هذه المكرمة
وتحمد لهم هذه الصفة الحميدة. وبالتالي تمكنهم من انفسها لاجلها. وان قسما
كبيراً من انتصارات المسلمين الحربية تعزى إلى شياع هذه الفضيلة بينهم.

وانا لنجد في التاريخ مشاهد تروعا من آيات الوفاء التي صنعت المعجزات.

ففي التاريخ العربي تروي قصة النعمان بن المنذر الملك العربي الذي دخل
المسيحية بعد ان كان وثنيا فاذا بها من اعجب العجاب.

ذهب ينتهى بالصيد فتخلف عنه حراسه ومرافقوه وضل

الطريق فضرب في الصحراء واذا به يبصر شيخ خيمة من بعيد فانطلق اليها. فرحب به اهلها وذبخوا له شاتهم الوحيد وخبزوا له بحفنة من دقيق. فلما طعم واراد ان ينصرف اثباهم بخبره وانه النعمان ملك العرب. وسئل عن رب البيت فأنبأ بانه حنظلة الطائي. فدعاه إلى الحضر ليعطيه اجر ما صنعه من معروف.

واصاب البادية جذب واتخذ الاعرابي طريقه إلى بلد النعمان ساعياً.

ومن العادات الوحشية التي ابتلى بها النعمان انه كان قد اتخذ يوماً بئيساً. ويوما سعيداً اما يوم السعد فجعله عيداً حافلاً يستقبل فيه الوفود ويكرمهم. واما يوم البؤس - الذي كان يرمز إلى اليوم الذي مات فيه ديماء فجأة - فقد اتخذه للانتقام من الطبيعة بان يجلس في بيت شيد له بجانب الصحراء. فاول قادم من تلك الجهة. هو الذي اصيب بلعنة الحياة. فكان يقتل سفها وعدوانا.

وبينما كان النعمان ينتظر القادم البائس في اليوم الموعود. واذا به بحنظلة قد اقبل. وفي قلبه الف علم وفي نفسه الف امل وامل بعطايا النعمان {ملك العرب}.

وقال له الملك ما اقدمك يا حنظلة في هذا اليوم البئيس الذي

لا ارى فيه قادما الا قتلته حتى قابوس ابني وفلذة كبدي فاطلب حاجتك فاني قاتلك.

قال حنظلة لتكن خزائن الملك فداء نفسي ما تتفني وفرّة العطاء ان زهقت نفسي.

قال الملك: ان هذا لهو القضاء المحتوم ولن تجد من دونه ملتحداً.

فقال ايها الملك! ان كان لا بد من قتلي فامهلني ارجع إلى اهلي اودعهم. وارعي شؤونهم.

قال: لك ذلك وهذه حمشاء ابل ولكن عليك ان تأتيني بضامن يكفلك.

وإذا بحنظلة يلتفت إلى الحاضرين فلا يجد من يكفله سوى رجل كان يدعى بـ {قراد}.

فرجع الملك وانصرف حنظلة وتفرق الجمع على ان يأتوا بعد عام ليشهدوا مقتل حنظلة أو قراد كفيله.

وقبل ان تنتضي السنة بيوم نظر النعمان إلى قراد وقال له اراك من الهالكين فاجاب:

فان يك صدر هذا اليوم ولى فان غداً لناظره قريب

واجتمعوا على ميعاد واستعجل الملك بقتل قراد ومنعه ذووا

قربته قائلين لنشهد انقضاء ساعات النهار فان لم يقدم حنظلة فلك ما تشاء.

وكان الناس واثقين جميعاً بان الاعرابي غاب إلى غير رجعة وبالفعل كانت اشعة الشمس الصفراء تمسح جنادل الصحراء وكان قراد يستعد للقتل وحنظلة لم يقدم.

وكادت الشمس تغرب. وكاد قراد يقتل فاذا بحنظلة يسعى إلى الملك. نهره الملك قائلاً ما حملك إلى المجيء بعد ان نجوت من الموت.

قال له: الوفاء بالعهد.

قال: فما حملك على الوفاء بالعهد؟

قال له: ديني الحق الذي حملني.

قال: وما دينك؟

وشرح حنظلة مبادئ دينه للنعمان وشرح الله صدر النعمان للدين الحق - دين الإسلام المتمثل في اتباع المسيح ذلك اليوم وهدى به امة من الناس بعد الغي والضلال البعيد.

هكذا تكون فضيلة الوفاء بالعهد داعية إلى الخير والحق والهدى.

وهكذا تكون فضيلة الوفاء كما في الحديث:

{الوفاء بالذمم زينة الكرم}

وهكذا يجب على الإنسان ان يفى بالعهد ان العهد كان عنه مسؤولاً.
(٩٩/١١)

والقلق اضحى اليوم سمة عامة للحضارة الحديثة. ومن عوامله الاساسية فقد الثقة المتبادلة بين افراد المجتمع. الدائن يخاف نكول المدين والمؤجر يخشى جحود المستأجر. وصاحب المصنع يراقب عماله وهم يراقبونه لكي لا يهضم احدهم حق الاخر. واصحاب المحلات ومن اليهم يضعون الف عين على وكلائهم وشركائهم خوفاً وحنراً.

ولقد اكثر الناس من قيود المعاملة. حتى اصبحت معقدة مستعصية فمن شاء ان يبتاع داراً جرت معاملات الطابو (السند الرسمي) في الف دائرة ودائرة، وكلما زادوا من تعقيب الأعمال خشية التزوير كلما تفنن الإنسان في السرقة والتزوير والتزييف.

وفي احدى العواصم الإسلامية اليوم ركبت الحركة التجارية نوعاً ما حتى ان الفرد يملك الملايين فلا يستخدمها لعامل واحد هو عدم الثقة بالناس. وكثرة التزوير في اوراق الاعتماد.

وهنا تتجلى لنا مرة اخرى خطورة الوفاء بالعهد. ومكانه الاسمى في المجتمع الراقى المتقدم. وضرورة وجوده لدى اولئك

الذين يبتغون بناء حياة هائلة بعيدة عن القلق والاضطراب.

ولقد كان المسلمون ينعمون بالثقة المتبادلة بين افراد المجتمع عندما كانت التعاليم الإسلامية موجهة لواقعهم في العصور الغابرة فضربوا اروع امثلة اليسر في المعاملة. ونشاط الحركة التجارية. رغم الظروف القاسية التي عاشوها.

لقد كانت الديون واموال المضاربة والقروض البعيدة الاجل قد اوجدت زخماً بليغاً في التجارة بين المسلمين.

وليس كل ذلك الا ناشئة الثقة التي كان المجتمع الاسلامي ينعم بها فيما بينهم، حتى ان المسلم لم يكن يفكر في نقض عهد أو خلف وعد. لانه كان يجد نفسه مسؤولاً عنهما كما هي مسؤولة عن أي فريضة اخرى دينية أو اجتماعية.

وظالما دفع المسلم قرضاً لاخيه كبيراً دون ان يسجله أو يطالب بدله رهينة. مما يحسبه الناس في هذه العصور {مغامرة مالية}.

واليكم القصة التالية التي تكشف لنا عن صورة واحدة من التزام الناس بالوفاء في العهد الإسلامي وتأثير الوفاء في تنشيط الحركة التجارية وها هي القصة:

لقد كان للإمام علي بن الحسين عليه السلام عبداً معتقاً

ثريا. فاراد ان يقترض منه عشرة الاف درهم إلى حين الميسرة فطلب العبد وثيقة على ذلك فاخرج الإمام سلكا من ورائه وأعطاه قائلاً:

{هذه وثيقتي اليك حتى اؤدي ما علي من الدين}

ما قيمة السلك لكي يقع رهينة عشرة الاف درهم؟ غير ان ثقة العبد بسيدته وانه يفي بدمته لدى المكنة دعتة إلى قبول الخيط وثيقة السلفة. فاستلمه وسلم الدراهم.

وبعد مدة اتى الإمام بالدراهم ليسد دينه فقال له:

{قد احضرت مالك فهات وثيقتي فقال له جعلت فداك ضيعتها} قال: اذن لا مال لك عندي، مثلي لا يستخف بدمته}.

فاخرج الرجل حقاً فاذا فيه الهدية فاعطاها علي بن الحسين عليه السلام واخذ الهدية ورمى بها وانصرف ليست للهدية وحدها اية قيمة ولكنها لدى انبائها عن عهد إنسان كريم تصبح وثيقة عشرة الاف درهم: لانها انبئت عن عهد لا ينقض وذمة لا يستهان بها.

من هذه القصة الصغيرة في صورتها الكبيرة في جوهرها نكتشف مدى التزام المسلمين بدمهم. ومدى تأثير ذلك في معاملاتهم التجارية.

واخيراً نرجو من الله العزيز: ان يوفق القارئ الكريم إلى العمل بما احتواه هذا الكتاب ليعيش حياة سعيدة هانئة والسلام عليه حينذاك في الدنيا والآخرة.

كربلاء المقدسة - محمد تقي المدرسي

الهوامش

- ١ أميل ص ٢٠٤
- ١ البلوغ ١٢٢ - ١١٨
- ٢ المصدر السابق
- ١ (٩٩/٧) - (٩٩/٦)
- ٢ في التربية ص ١١٧
- ١ مجلة العربي العدد: ١١٢ ص ٧٢
- ١ الاسراء (٥٣)
- ٢ البقرة (٨٣)
- ٣ وسائل الشيعة ابواب العشرة ج ٢
- ١ كيف تكسب الاصدقاء.
- ١ كيف تكسب الاصدقاء ص ٢٧
- ١ نشرت في مجلة {نداء الإسلام} الكريائية
- ١ بحار الانوار الجزء ٩ الصفحة ٥٢٠